التلفزيون المصري في مساء ٧ تشرين الاول « لقد كانت مفاجأة لنا ان نجد المصريين فوق رؤوسنا » ... « أننا فوجئنا فعلا بالمعركة ولم يدر هذا في تفكيرنا أبدا »(٢).

ويذكر مراسل صحيفة الفيغارو « عند الظهر — يوم ٦ تشرين الاول — بدأ جنود اسرائيل عند جبهة قناة السويس يتململون بسبب قرار الطوارىء القصوى الذي صدر لهم ، فالهدوء كامل ، والصمت مطبق . ومن غير المعقول ان يبدأ الجيش المصري هجومه عند الظهيرة ... وبدأ الجنود والضباط يتخلون عن مواقعهم ، واخذت اصابعهم تخف عن زناد بنادقهم الموجهة فوهاتها الى... الى لاشيء يتحرك امامهم ! وترك بعضهم مدفعه وأخذ يغسل ملابسه. واستلقى البعض الآخر ليرتاح ، او ليكتب خطابا الى أسرته بمناسبة العيد الديني الكبير . اما جنود موقع « دورا » — جنوبي مدينة القنيطرة شرق — فانهم بدأوا مباراة في كرة القدم لتسلية أنفسهم ، وقتلا للوقت الذي يمر في هدوء وخمول ... وفي تمام الساعة الثانية بعد الظهر كان الجندي الثاني صموئيل يقفز قفزة عالية ليلتقط الكرة قبل أن تخترق شبكة المرمى الذي يحرسه ، واذا به يطلق صرخة غالية « طائرات ! طائرات ! »... وكانت تمر فوق ملعب كرة القدم ٤ مقاتلات مصرية من طراز ميغ ٢١ على ارتفاع بسيط جدا من سطح الارض ، قادمة من الضفة الغربية القناة ، متجهة الى أعماق سيناء . وقبل ان يعلق أحد من لاعبي الكرة كانت المدفعية المصرية تضرب ضربتها الاولى »(٣).

هكذا بدأت الحرب الشاملة وتمزقت حالة « اللاحرب واللاسلم » وانهارت خطوط وقف القتال الذي نادى وزير الدفاع موشي دايان قبل الحرب بشهرين فقط بضرورة تعزيزها والوقوف عندها « حتى يصبح العرب مستعدين للجلوس معنا الى طاولة السلام »(٤). والتي كان يشعياهو جافيتش قائد القوات الاسرائيلية في سيناء اثناء حرب ١٩٦٧ قد وصفها بأنها « أفضل مواقع على الخطوط الامامية تمتعت بها (اسرائيل) في أي وقت من الناحية العسكرية »(٥).

ويرجع تاريخ اتخاذ القرار العربي بالعودة الى القتال الى مطلع عام ١٩٧٣ . ومن المؤكد ان هذا القرار لم يغب عن الرئيس الراحل جمال عبد الناصر منذ نهاية حرب الاستنزاف (١٩٧٠) ، كما لم يغب عن الرئيسين السادات والاسد منذ تسنمهما منصب رئاسة الجمهورية ، لكن المساعي الدبلوماسية والسياسية كانت تحتل المكانة الرئيسية في جدول افضليات الصراع . وكان انتقال قرار القتال الى المرتبة الاولى يتطلب اعادة بناء الجيشين المصري والسوري ورفع كفاءتهما القتالية ، وخلق الوضع العربي الملائم لحرب شاملة تستخدم فيها كافة الاسلحة العسكرية والاقتصادية ، وظهور وضع دولي ملائم لا يتعارض مع شن القتال لاستعادة الاراضي المحتلة في حرب ١٩٦٧ ، او خلق الضغط العسكري الذي يحرك الوضع السياسي المستنقع ، ويعيد الحياة الى قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ الذي عطلت الولايات المتحدة واسرائيل تنفيذه . ويبدو ان الرئيس السادات اتخذ مثل هذا القرار في عام ١٩٧١ (عام الحسم) ، ثم عدل عنه بعد ظهور متغيرات جديدة . ولكن الفكرة بقيت كامنة تنتظر اللحظة المناسبة . وبقيت المساعي السياسية — الدبلوماسية « الوسيلة العربية الاولى » لاستعادة الاراضي المحتلة . ومهما قيل في تهديدات الرئيس السادات بخصوص عام الحسم ، فان من المعتقد ان المتغيرات الجديدة التي منعت الجيش المصري من بدء القتال في هذا العام كانت في الاساس متغيرات دولية ، أعطت الرئيس المصري شيئا من الامل بأمكانية الحصول على هدف الحرب عن طريق السياسة .

وكان الاسرائيليون يعرفون ان الضغط الشعبي العربي ، والرغبة في استعادة الاراضي المحتلة والكرامة المهدورة ، ورفع شعار « ما اخذ بالقوة لا يسترد الا بالقوة »،